أين الخلل؟

قضية للمناقشة

السُّنَن في القرآن

بقلم : حنان لحام

■■ كان لكلام الدكتور القرضاوي ـ جزاه الله خيراً ـ في وقفته مع الحركة الإسلامية محللاً باحثاً عن الخلل أكبر الأثر في دفعي لتسجيل بعض الملاحظات التي شعرت بضرورة عرضها كي تلقي ضوءاً على بعض الإشارات والعبارات التي ذكرها الدكتور مُجْمَلَة ولم يتناولها بالبيان والتفصيل .. إن كلماته النيِّرة المخلصة عن أهمية النقد والنصح لتقويم الحركة الإسلامية قطعت من نفسي كل تردد ، وجعلتني أخطّ هذه الكلمات رغم شعوري بضآلتي أمام القضية .. راجية من الله السداد .. ومن الأساتذة الكرام والإخوة القراء أن يساهموا في مناقشة وتصحيح ما أعرض من أفكار ..

ولست هنا بصدد مدح الأفكار الإيجابية التي وردت في عبارات مشرقة في مقالة الدكتور .. فذلك أمر لا يتمارى فيه اثنان ـ زاده الله علماً وعملاً وبارك لنا في إنتاجه ـ ولكنني أردت أن أتأمل بعض العبارات الواردة فيها وأتناولها بشيء من التفصيل . ■■

الأسباب الخارجية والأسباب الداخلية

يقرر الدكتور أن إخفاق الحركة الإسلامية يرجع إلى أسباب خارجية وداخلية ، ويقول : [**ولا يجوز لنا إذا أرَّخنا للحركة أو نقدناها أن نهمل أحدهما أو نضخمه على حساب الآخر**] .

ومع ذلك فإن الدكتور يركز في مقالته على الأسباب الداخلية **فلماذا** ؟! وهنا يأتي سؤال آخر :

وهل توقفت الأسباب الخارجية المعوقة للتيار الإسلامي في يوم من الأيام ؟

إن شياطين الإنس والجن تعمل دائبة ـ منذ خلق آدم وإلى يوم القيامة ـ على زرع الألغام في طريق الدعاة إلى الله وإيجاد العقبات .. ومع ذلك فقد كان المؤمنون ينجحون تارة ويفشلون أخرى ..

وقد يقال : إن الحرب ضد الإسلام الآن أصبحت أقوى وأشرس لتقدم وسائل الإعلام وعلم النفس والاجتماع ، فالحرب الآن مبنية على خطط فنية مدروسة تجند لها وسائل الإعلام ...

ولكن ألا يمكن أن تكون الدعوة إلى الله أيضاً أقوى وأمضى باستخدام هذا التقدم في علوم الآفاق والأنفس ..؟!

لقد أعدَّ الصحابة أحسن ما يستطيعون من القوة التي كانت في عصرهم ؛ **فهل أتقن الدعاة اليوم استخدام جوانب القوة التي برزت في هذا العصر (قوة العلم ـ الاقتصاد ـ الإعلام ...)** ؟

ويحضرني كلام الأخ القارىء من شيكاغو (في صفحة ٨٢ من العدد ٥٥ من مجلة الأمة) عن هجرة الأدمغة العربية .. يشكو فيه من أن هؤلاء الذين حصلوا

■ ميزة هذه المناقشة أنها تفسح المجال لوجهات النظر المتنوعة ، حتى المتعارضة منها أحياناً ، ليتحقق للمسلمين بشكل عام ، وللعاملين في الحقل الإسلامي بشكل خاص رؤية خصبة لجميع جوانب الأزمة التي يعاني منها الواقع الإسلامي .. وليبصروا ما يدور بعقل النخبة ، أو من يسمون بالقيادة الفكرية ، من طرائق للعلاج .

ونعود إلى التذكير بأن لامجال للتخوف على القضية الإسلامية من الحوار وبيان العلل والأمراض التي يعاني منها الجيل المسلم بحجة أن ذلك يسهل على الأعداء مهمتهم في حربهم للإسلام والمسلمين ، وإنما التخوف من إلغاء الحوار واستبقاء الأمراض التي تمكن للعدو منا على كل حال ... ولو أخذ المسلمون هذا في اعتبارهم تاريخياً لتعطلت كل حسبة ، وانطفأت كل فاعلية ، وغابت كل رقابة ، ولانقلب العمل الإسلامي إلى لون من الكهانة وضرب من التعصب يساهم في الابقاء على الأخطاء ، وحماية الانحراف .. والله تعالى يقول : ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ** ... ﴾ (التوبة : ٧١) ■

[التحرير]

● قد تكون مشكلة المسلمين اليوم هي عدم التمييز بين المحن التي لا بد أن تواجه كل دعوة إصلاح وبين المصائب التي تأتي نتيجة لأخطائنا ..●

الاختصاصات العالية من المسلمين المهاجرين (**إذا فكّروا بالعودة إلى بلد إسلامي عربي عوملوا على أنهم منتفعون** .. وإذا أعطوا **مراكز أو مهام غالباً ما يكونون أدنى من أقرانهم الأمريكيين الغربيين ، بينما هم في بلاد الغرب التي تنظر إلى مردود العمل قبل جواز السفر** ..) إن القارىء الكريم يشكو ويعتصر قلبه ألماً من وجود الأسباب الخارجية التي يشير إليها الدكتور .. **فماذا نفعل نحن وقلوبنا تعتصر فجيعة لفقدان النخبة المختصة من شبابنا وقد خلت منهم ساحة العمل في عالمنا** ..؟!

هل الحل هو أن نطالب الشياطين بالتوبة إلى الله ؟! أم نقعد منتظرين ونحن نجأر إلى الله تعالى أن يستأصل شأفة الشياطين من وجه الأرض حتى نعمرها بالخير والصلاح ..؟!

وهل بنى رسول الله ﷺ مجتمعه بإعطاء الحقوق والمراكز والأجور لأصحابه ..؟! **فماذا أعطى لمصعب بن عمير على المهمة التي قام بها في المدينة ؟! وما هوّ الأجر الذي تقاضاه المسلمون على بناء المسجد الأول ، وحفر الخندق ، والخروج في السرايا والغزوات** ..؟!

إن الدعاة إلى الله هم أول من ينبغي أن يدرك أن المجتمع يبنى ببذل الواجب والتضحية بحظوظ النفس ، وإنه لمن المؤلم أن يغيب ذلك عن ذهن المسلم ، بينما نجد **غاندي** ـ الزعيم الهندي ـ يعود من إنجلترا إلى بلده ـ بعد إنهاء تحصيله العلمي ـ لإنقاذ أمّته ، فيلبس من الثياب أخشن ما يلبس قومه .. ويتنقل بين القرىٰ سيراً على الأقدام ـ وكثيراً ما يكون حافياً ـ يرفض أن ينتقل أو يركب لأنه يريد أن يكون واحداً من شعبه ، يحسّ بآلامهم ومعاناتهم .. إذ كيف يتسنى له أن يفكر بحلول لمشاكلهم دون أن يتذوقها ويعاني منها ؟!

المشكلة إذنْ لا تنبع من الأسباب الخارجية .. فالعقبات والمعوقات موجودة دائماً .. بل إن من المفكرين من يجعل وجودها شرطاً لحدوث الحركة والنهضة .. فالمؤرخ **توينبي** مثلاً حين يتأمل السبب الذي يجعل الأمة تنتقل من السكون إلى الحركة يقول : إنها عقبات وتحديات تتعرض لها الأمة فتتحرك للخروج منها . وإن كان يشترط فيها ألاَّ تكون ضعيفة ولا ساحقة ، وإنما بدرجة مناسبة .

والله سبحانه بحكمته وعلمه قد قضىٰ أن يهبط الشيطان مع آدم إلى الأرض ليختلق له العقبات ، وعندها يتحرك الإنسان ويستنفر ذكاءه وطاقته للتغلب على العقبة ﴿ **فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ** ﴾ وعندها يبدع الإنسان ويرتقي . ولهذا نركز في بحثنا عن موضع الخلل في العمل الإسلامي على الأسباب الداخلية .

النجاح .. والإخفاق

ثم يقول الدكتور : [**على أنه لا ينبغي أن نجعل النجاح والإخفاق هما مقياس الصواب والخطأ ومعيار الحق والباطل ، فمن نجح فهو مصيب ، ومن أخفق فهو مخطىء .. فهذا مقياس مردود يرده الدين والمنطق والتاريخ والواقع**] .. وهنا شعرت بالحاجة إلى الدقة والتوضيح ولا بد من الفهم السليم حتى لا يسحب بساط السنن من تحت أقدامنا ، ولكي نتمكن من عبور متاهة العبثية المظلمة إلى النور ، خاصة وأننا حديثو عهد باليقظة ، ومن العجيب أننا أمة القرآن الذي أعطى جانب

أين الخلل؟
قضية للمناقشة

السُّنَن في القرآن

السنن من الأهمية ما لم يعطه أي كتاب آخر .. قد أغفلنا هذا الجانب السنني العلمي في ديننا .. حتى وصفنا بعض المستشرقين بالنظر الذاتي والفكر الغيبي (يقصدون بذلك الفكر الخرافي الذي لا يؤمن بالقوانين والمنهجية العلمية والذرية في رؤية الأحداث وتحليلها ؛ أي العجز عن رؤية الارتباط في الأحداث بين الأسباب والنتائج) ..!!

حقاً إننا بحاجة إلى إعادة ترتيب متاعنا الفكري .. ورحم الله ابن تيمية فقد كان سابقاً لعصره في نظرته السننية .. **يذكر ابن كثير عنه أنه كان يشجّع الناس والأمراء على حرب التتار ، ويحلف لهم أنهم منصورون .. فيقول له الأمراء : قل إن شاء الله !! فيقول : إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً .. وإن وعد الله كان مفعولاً .**

السنن في القرآن

فالقرآن يقرر أن أمور الدنيا تجري بحسب قواعد وقوانين .. ويعلق في آيات كثيرة أن الحق هو الذي سينتصر :

﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ . وأن جنده هم الغالبون : **﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ . وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾** (الصافات : ١٧٣)

وهو في ذلك لا يشير إلى النجاح في الآخرة فقط بل إن القانون يشمل الدنيا : **﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾** (النور : ٥٥) ، وهو يطلب من الناس أن ينظروا في نتائج الكافرين : **﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾** (آل عمران : ١٧٣) ، ويعلّم أتباعه أن يتحدّوا الكافرين بالعواقب : **﴿ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ . وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾** (هود : ١٢٢) فالنتائج هي التي تحكم بيننا وهي التي ستشهد لأصحاب الحق .

والقرآن يسمي هذه القوانين التي تقرر نجاح أصحاب الحق وخذلان الباطل وأهله سنناً . ويؤكد ثباتها وديمومتها .. فهو حين يتحدث عن تنكيل الله بالمنافقين في الدنيا إن لم ينتهوا عن أعمالهم يسمي ذلك سنة **﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾** (الأحزاب : ٦٢) فهي القاعدة الثابتة التي حكمت حياة الناس على الأرض .

ويتحدث عن المكر السيء : **﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً . أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ إِنَّه كَانَ عَلِيماً قَدِيراً ﴾** (فاطر : ٤٣ - ٤٤) .

غير أن القارىء قد تمر معه في ثنايا القرآن آيات أخرى قد تبدو معارضة لهذا الخط ، مثل قوله تعالى : **﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ**

● لقد أعد الصحابة أحسن ما يستطيعون من القوة التي كانت في عصرهم ، فهل أتقن الدعاة اليوم استخدام جوانب القوة التي برزت في هذا العصر ؟! ●

● أصحاب الباطل قد يحصلون على نجاح مؤقت إن خدموا باطلهم ، لكن البناء الذي أسس على قواعد فاسدة لا بد أن ينهار . ●

الْمِهَادُ ﴾ (آل عمران : ١٩٦ ـ ١٩٧) ،

وقوله :

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ (الأنفال : ٢٥) ، وخبر أصحاب الأخدود الذين أحرقوا المؤمنين ... إلخ ..

فكيف نفهم هذا ؟!

[١] النتائج العاجلة والنتائج البعيدة المدى

وهو أول تمييز ضروري ينبغي لنا أن نتأمله .. فربما يستمتع شارب الخمر أياماً .. لكنه على المدىٰ الطويل سيصاب بعلل وآفات جسمية ونفسية وعقلية واجتماعية لم تعد تخفى على أحد .. ولقد عذَّب فرعون السحرة حين آمنوا .. لكنه هو الذي خسر الجولة في النهاية .. وهذا ما أشار إليه السحرة المؤمنون عندما واجهوا المحنة على يد فرعون ، وهو يقول لهم متبجحاً :

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَىٰ ﴾ فردُّوا عليه بسكينة ويقين من أدرك قانون الله :

﴿ واللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ (طه : ٧٣) .

فالقرآن يحذِّر من الاغترار بالنتائج السريعة العاجلة .. فهي كالزبد الرابي ينتعش برهة لكنه سرعان ما ينطفىء :

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ (الرعد : ١٧) . فأصحاب الباطل قد يحصلون على نجاح مؤقت إن خدموا باطلهم بإخلاص وتفانٍ ، لكن البناء الذي أسس على قواعد فاسدة لا بد أن ينهار :

﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ ﴾ ، وقديماً قيل : من يضحك أخيراً يضحك كثيراً ..

[٢] سنة الابتلاء هي غير نتائج الأعمال

فلا بد من التمييز بين المحن التي لا بد أن تواجه كل دعوة إصلاح :

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ .. (العنكبوت : ٢ ـ ٣) وبين المصائب التي تأتي نتيجة لأخطائنا .. فالقرآن الذي يؤكد على سنة ابتلاء الله لعباده المؤمنين :

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ (آل عمران : ٨٦) يؤكد أيضاً على أن الفشل والفساد هو من صنع الناس :

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم : ٤١) .

فلقد عُذِّب آل ياسر وبلال وغيرهم في بداية الدعوة .. وكانت صحيفة المقاطعة التي ضيقت على المسلمين حتى أكلوا أوراق الشجر .. وكان عام الحزن .. وكانت حادثة الرجيع ، ثم بئر معونة التي قتل فيها غدراً قرابة أربعين من القراء الذي أرسلهم النبي ﷺ دعاة إلى الله بين القبائل بعد أن تكفَّل المشركون بحمايتهم .. إلى غير ذلك من المحن التي ابتلي المسلمون بها دون أن يكون لهم يد في حدوثها .. **ولو كانت هذه المحن نتائج لأخطاء ارتكبها المسلمون لما سكت القرآن عن ذلك ..**

لقد كانت الدعوة تمشي بحسب سنة الله : دعوة ثم ابتلاء ، ومحن ثم صبر وتمسك بأمر الله .. ثم نصر .

ولم يكن ذلك بالأمر اليسير على النفوس .. لكنه هو الطريق الوحيد للوصول إلى الهدف :

﴿ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ .. وحتى صلح الحديبية .. لقد بدا في ظاهره وكأنه في مصلحة المشركين .. وكره بعض المؤمنين ما حدث فيه من رد بعض المؤمنين الذين حبستهم قريش عن اللحاق برسول الله ﷺ .. لكنه على المدىٰ الطويل كان هو الفتح المبين . ورغم هذه المحن والآلام التي مر بها المسلمون فقد كان خط الدعوة في تقدم .. لأن المحن هي نتائج عاجلة وأمور عارضة لا بد من الصبر عليها حتى يأتي أمر الله .. ويأتي ما هو خير وأبقى ..

أما المصائب التي كانت نتيجة لضعف المسلمين وخطئهم فلم يكن القرآن يسكت عنها بل يشرح أسبابها ويحمِّل المسلمين

أين الخلل ؟ قضية للمناقشة

السُّنَن في القرآن

المسؤولية كاملة عنها . كما حدث في أُحد : ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ (آل عمران : ١٦٥) . وكما حدث عند أزمة حادثة الإفك ... إلخ .

وهذا يقتضي منَّا تدقيقاً بصيراً حتى نميز فيما يحدث لنا بين ما هو محنة وما هو نتيجة لإهمال أو نقص في الإخلاص أو الصواب .

[٣] النتائج في الدنيا جماعية وفي الآخرة فردية

وهذا ما نبَّه إليه رسول الله ﷺ عندما سألته زوجه عائشة رضي الله عنها : « **أنهلك وفينا الصالحون** ؟ » قال : « **نعم ، إذا كثر الخبث** » [مختصر صحيح مسلم للمنذري : ١٩٨٧] ، وهذا ما أشارت إليه الآية :

﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً** ﴾ . فالنتائج في الدنيا تأتي بحسب الأكثرية ، لأن النتائج هي محصلة مجموع أعمال الأمة ، فإذا كانت الأكثرية جاهلة بقوانين الصحة تعرض المجتمع كله للأوبئة .. ولهذا تأتي الآيات التي تعد بنجاح الدنيا بصيغة الجماعية .. فهي تعد بالنصر جماعة المؤمنين إن استقامت وقامت بأسباب النصر :

﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ** ﴾ . . وأما حين تخاطب الداعي كفرد فهي لا تجزم بأنه سيرى في الدنيا النجاح :

﴿ **وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ** ﴾ (الرعد : ٤٠) .

فالإنسان في الدنيا يضره ضلال المجتمع وفساده وتخلفه ، ويؤثر عليه وعلى أسرته .. فيعرضه للأذيّة في سائر جوانب حياته . أما في الآخرة :

﴿ **لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ** ﴾

﴿ **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ** ﴾ (المدثر : ٣٨)

﴿ **وَيَأْتِينَا فَرْداً** ﴾ (مريم : ٨٠) ولهذا قتل بعض الأنبياء وكثير من المصلحين بطغيان وجهل الأكثرية .

سنَّة الهداية

وأما **نوح** ـ عليه السلام ـ فقد نجح في دعوته وجاءت النتيجة في الدنيا :

﴿ **مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً** ﴾ (نوح : ٢٥) لكنه لم يستطع هداية ابنه . لأن للهداية سنَّة :

﴿ **يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ** ﴾ (الرعد : ٢٧) كما قيل لرسول الله ﷺ في عمه أبي طالب :

﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ** ﴾ فقد لا تستطيع هداية إنسان بعينه مهما بذلت له من جهد ، لأنه يملك حرية الاختيار ، ولا بد أن يتحرك هو نحو الخير حتى يحدث التفاعل . لكن الداعي حين ينذر نفسه للقضية ، ويلتزم منهج القرآن في الدعوة ، ويأخذ بسنن تغيير النفوس يستطيع أن يحقق الجماعة المهتدية .. ثم تنمو الثمار ويأتي النصر .. **ونوح ـ عليه السلام ـ وإن لم يُغَيِّرْ ابنه .. لكنه غَيَّرَ حياة مجتمع بأسره .**

دعوة محمد ﷺ

وهكذا كان عمل رسول الله ﷺ فلقد حقق المجتمع الإسلامي باستخدام السنن والقيام بالأسباب .. بينما كان أكثر الأنبياء من قبله ينتصر بمعجزات قاهرة .. ولهذا يقال : انتهى زمن المعجزات .. وكما يقول **سيد قطب** ـ رحمه الله ـ **إن الله جعل هذا الدين يتحقق على الأرض بجهد البشر .. لا بطريق سحرية غامضة .**

ومن هنا كانت دعوة محمد ﷺ منهجاً للدعاة من بعده :

﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾ (**الأحزاب : ٢١**) . فلقد كانت حياته ﷺ حافلة بالجهد والاجتهاد في توفير أفضل أسباب النصر لدعوته .. رسم منهاجاً دقيقاً لتغيير النفوس طبَّقه على أتباعه وأعدائه حتى رسخت قواعد بنيانه .

وعلى هذا فإن قولهم : (**عليَّ أن أسعى وليس عليَّ تحقيق النجاح**) صحيح على مستوىً فردي . أما على مستوىً جماعي فإذا استمر الفشل على المدىٰ الطويل فلا بد من المراجعة . وسنن الله هنا : ﴿ **قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ** ﴾ .

هل للمستوى الجماعي حد معين ؟

هل يعني ذلك أن النتائج لن تأتي حتى يصبح المؤمنون هم الأكثرية في المجتمع ؟ إن هذا من شأنه أن يحيل الأمر إلى ضرب من الخيال .. ولكن يمكن أن نقرب الموضوع بتشبيهه بالمستوىٰ الصحي في المجتمع . إذ لا يشترط ـ لتحقيق ذلك ـ أن يصبح الأكثرية أطباء .. ولكن من المتعارف عليه الآن أن عدد الأطباء يجب أن يكون متناسباً مع تعداد الأمة حتى تجتاز العقبة الصحية (وهم بلا شك يحددون نسبة مئوية معينة في ذلك) .

والمجتمع المسلم الأول حين قام في

● إن لكل علم مختبراً تجرىٰ فيه التجارب لكشف القوانين وتسخيرها .. والتاريخ هو المختبر الذي تكشف فيه قوانين العلوم الإنسانية . ●

المدينة لم يكن أهل المدينة كلهم مسلمين .. لكن أكثر أهل الحل والعقد في المدينة (وهم الذين يثق بهم الناس ويسلمون لهم) هم الذين آمنوا وسلموا الأمر إلى رسول الله ﷺ وطلبوا منه أن يحكِّم فيهم شريعة الله .

وكثيراً ما كنت أقف عند الحدين اللذين وصفهما القرآن الكريم لتحقيق النصر :

﴿ إن يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ ﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإن يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾
(الأنفال : ٦٥ ـ ٦٦) .

فهل يمكن أن نستنتج من الآية : أن الحد الأدنى العددي للمؤمنين مقابل الآخرين نسبته : واحد إلى عشرة . على أن يكونوا من النوعية المتينة الصابرة .

فإذا كانت النوعية دون المستوىٰ اللازم اقتضى ذلك تكثير العدد إلى أن يبلغ حداً أعلى فتصبح النسبة : واحداً إلى اثنين .

إنها إشارة واضحة في القرآن إلى أهمية الكمية الكافية من النوعية اللازمة .. وأما تحديد النسبة الكافية فهو أمر لا أخوض فيه لأنه من اختصاص علماء الاجتماع المسلمين .

موقف التاريخ

هذه بعض ملاحظات قدمتها فيما يتعلق بموقف الدين من النجاح والفشل الدنيوي .

فهل يختلف التاريخ عن الدين في تقريره لهذه الحقائق ؟

إنَّ القرآن يطلب من الناس أن يعودوا إلى التاريخ ليسمعوا شهادته **﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً ﴾**
(الطلاق : ٨) .

إن لكل علم مختبراً تجرىٰ فيه التجارب لكشف القوانين وتسخيرها .. والتاريخ هو المختبر الذي تكشف فيه قوانين العلوم الإنسانية .. إذ ليس من المعقول أن نضع الأمم في حقل تجارب كي نستخلص قوانين الحياة البشرية .

ولكن هل سار المسلمون في الأرض واستنطقوا الآثار ؟

ولو سبر المسلمون أغوار التاريخ لاستطاعوا أن يأتوا به كشاهد عدل يقرر أحقية السنن التي قررها القرآن .

وأنا في هذا المجال لا أدَّعي الإلمام بالتاريخ .. لكنني انطلاقاً من إيماني بالله أو من أنه يسير في ركاب القرآن ويشهد له ، وإن كان لي أن أشير إلى لقطة واحدة منه تتعلق بموضوعنا .. فإنني أذكر قول « **توينبي** » في تاريخه عن النصرانية بأنها قد انتصرت بالوداعة والتضحية واكتسحت جبروت الرومانية التي حاولت لعدة قرون أن تضطهد رجالها وتستأصل شأفتهم .. [فانتصرت روح الاستشهاد أو النصرانية في النهاية على سيف الحاكم الروماني] .

وبعد : فإن حركة النهضة في عالمنا قد تزامنت مع حركات أخرىٰ في العالم ، كاليابان والصهيونية .. أما هم فقد فرضوا أنفسهم على المجتمع الدولي .. وأمَّا نحن فقد مكثنا نراوح في مكاننا .. فهل كتب الله أن ينصر اليهود والبوذيين ويخذل المسلمين ؟!

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً . وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً ﴾
(الإسراء : ١٨ ـ ١٩) إنَّ القرآن يقرر أن من أراد الدنيا وقام بسننها حصل على نتائجها ـ وإن لم يكن مؤمناً ـ خاصة إن غاب المسلمون عن ميدان العلم والسنن والعمل الفني المخطط .. ومع ذلك فإن نجاحهم مؤقت يمثل نتائج عاجلة لا بد أن يقضي عليها فساد المثل الأعلى الذي يخدمونه . **لكن المهم هو نحن .. ما علَّتنا ؟ وأين يكمن الخلل في حركاتنا الإسلامية ؟! أهو في الكمية ؟ أم في النوعية ؟**

أهي أزمة إخلاص ؟ أم أزمة علم وصواب ؟